رائد المسرح الغنائي العربي

أحمد أبو خليل القباني (١٨٣٣ ـ ١٩٠٣)

د. عبد الحميد حمام[١] (الأردن)

هو أحمد أبو خليل بن محمد آغا بن حسين آغا آقبيق، وُلد في دمشق عام ١٨٣٣، وينحدر من أصلٍ تركي يعود إلى أكرم آقبيق الذي كان ياور (مستشار) السلطان سليمان القانوني، وأحد أجداده شادي يك آقبيق الذي بنى مدرسة الشابكية للعلوم الدينية مع جامع كبير، وأوقف لهما أوقاف القنوات، وهو حيّ تجاريّ في دمشق، ثمّ لقّب في عهده بالقنواتي لأنه يملك قبّان باب الجابية نسبة إلى القبّابين التي كانت بذلك التاريخ مُلكاً لفريق من العائلات في كل حيّ من أحياء دمشق. وأبو خليل هو عمّ لأبي الشاعر نزار قباني وعمّ لأمه أيضاً (١).

وبعد أن تلقّى قسطاً من العلم، وجد في نفسه ميلاً للتمثيل والموسيقى وطفق يُمارس الفنّ ويدرسهُ حتّى برع فيه، وفي طور التجربة والهواية إلى حين ظهوره على الناس في مسرحه بباب توما؛ أي حوالي سنة ١٨٦٥، قبل إنتقاله إلى مصر و قدّم عِدّة مسرحيات كان أولها مسرحية "وضّاح ومصباح وقوت الأرواح" عام ١٨٧١. التي لاقت إستحسان الناس وحظيت بإقبال شديدين. وبتشجيعٍ من مدحت باشا أسّس فرقتَه المسرحيّة التي قدّم معها أربعين عرضا مسرحيا وغنائيا وتمثيليات عدّة. وقد كان يعطي أدوار النساء لصبيةٍ مناسبين مِمّا أدّى لإستنكار مشايخ دمشق الذين شكوه لوالي دمشق الذي أمر بإيقاف نشاط الفرقةبالرّغم من أنَّ البلاد كانت تفتقر إلى مثل هذا العامل الإجتماعى الفني الذي يوفّر أداة لتنوير العقول وتهذيب الأخلاق والترويح عن النفوس.

بالرغم من أن القباني كان قد أعتنى بفرقته،ومدّها بالملابس والمناظر التمثيلية وحسَّنَ مستواها الأدائي، إلاّ أنّ بعضَ الوُشاة وشوا به إلى أستنبول زاعمين أنّه ألّف فرقة تمثيليّة تنشرُ الرّذيلة وتُعمّم الخلاعة في سوريا مما يغوي الشباب إلى دركات الفساد، وإنّ إستمرارها خطرٌ على أخلاق النّاشِئة. فورد أمرٌ من أستنبول بتعطيل الفرقة نهائيّاً.

بعد أن لقيَ أبا خليل هذا الإضطهاد من وطنه الذي صادفَ وُجود عبده الحاملي ـ مغنّي مصر الشهير ـ في دمشق، نصح الحاملي القباني بالرحيل إلى مصر كي يتسنّى لهُ التمثيلَ بحرّية، مما شجّعه على النزوح إلى مصر، وكان ذلك عام ١٨٨٤، فتلقّاهُ المصريون بالحفاوة والترحيب.

في مسرحه الخاص شرَعَ يعمل مسرحيّاتٍ من تأليفه وإخراجه ونظم أغانيه التي لحّنها كما مثّل الدور الأول فيها. إضافة لتعدُّدِ مواهبه في الفن ، فقد كان يُجيدُ التركية والفارسية.

فاز القباني بإقبال الجماهير وتقديرها، ووجدت الطّبقات الرّفيعة فيها ما يروقها من التمثيل البديع والغناء المُطرب. فأخذ يتنقّل بفرقته بين مدُن مصر مثل الاسكندرية والقاهرة وطنطا.

---

[١] مؤلِّف وعالم في الموسيقى؛ وقد كتب العديد من الأعمال الموسيقيّة في مُختَلفِ المجموعات الغنائية والآلية التي تمّ أداؤها في حفلات موسيقية في الأردن وبعض الدول العربية والعالمية، كما كتب العديد من الأبحاث المنشورة في موسوعات ومجلاّتٍ محكّمة وأدبية في مواضيع موسيقيَّة عربية وعالمية، وله ثلاثة كتب منشورة (معارضة العروض، الموسيقى والأناشيد وطرائق تدريسِهما، والحياة الموسيقية الأردنية في ثمانين عاما).

كان صوت القباني من طبقة الرجال المتوسطة(باريتون) وكان بارِعاً بالضروب الإيقاعية العربية والتركية على السواء. وفي نهاية مسرحيّاته كان يُفرِدُ زماناً يؤدّي فيه بعض أغانيه والموشحات التي أخذها عنهُ بعضُ مغنّي مصر من أمثال كامل الخلعي والليثي والجمبكجي وغيرهم. وكانوا يدعونَه بالأستاذ الأكبر في التمثيل والغناء في مصر وسوريا، وقال عنه خليل مطران: " لقد سمِعتُ من نادِرَتَي زمانهما عبده الحمولي وعثمان

لكنه (أي القباتي) على توسُّط صوته، كان أكبر أساتذة الموسيقى عِلماً وبراعة وإنشاداً. وكان يُلحّن الأُغنية للجوقة ويُساهم في الغناء معها، وأحيانا

يغنيها منفردا ـ بالرغم من صوته العادي ـ لكنه كان يتفنَّنُ في الأداء وإخراج النّغمات. وكانَ أوّلُ من أدخل الرقصَ إلى المسرح (رقص السَّماح)الذي كانت مجموعة من الراقصين والراقصات يؤدونه دائريا في لحن ختام الرواية. وإليكم أسماء بعض أغانيه:

" ظبيُ أُنسٍ ذو مُحيّا" (كردان)، "قُم ولازِم يا مُعنّى" (عجم عشيران)، "بدر حُسنٍ لاحَ لي" (بستة انكار)، "بزغت شمسُ الكمال" (حجاز).

تمتَّع الشيخ القباني بمركز عظيم ونفوذ كبير عندِ الشعب والعظماء في مصر ، كما تمتع بشهرةواسعة كالشيخ سلامة حجازي كممثل وملحن ومغن، ويُعتَقدإن القباني يمتاز عنه كمؤلفِ رواياتهِ و أغانيه.

كان مسرحُهُ قريباً من مسرح الشيخ سلامة، فكان منافسَهُ القدير في فنَّ التمثيل والموسيقى. ولكنهما يُعتبَران زعيما النهضة المسرحية الموسيقية في مصر والشرق في تلك المرحلة.

بعد مُكوث القباني في مصرَ ثلاث سنواتٍ يتنقَّلُ من مدينة إلى أُخرى، ويحصلُ على نصرٍ تِلوَ الآخر، سافر إلى أمريكا الجنوبية بصُحبة الدكتور حلمي الدرويش ووالده اللذين كانا قد لحِقا بهِ عندما غادر دمشق إلى مصر، وكان والد الدكتور الدرويش يضطلعُ بدور البطل الكبير في فرقة القباني وكان ابنُهُ الدكتور يقوم بتمثيل دور العاشق ويقوم القباني بدور الفتى الأول. استمرّت الفِرقةُ تتجوَّلُ في بونس آيرس وسنتياغو مدّة عام، تقوم بأداء التمثيليات ذات الفصل الواحد، إلى أن انضمَّ للفرقة الممثل الهزلي حسن الشاطر الذي كان سابقاً عضوٌ في فرقة النقّاش الذي بدأ يكتُبُ للفرقة مسرحيات ذات فصلين وثلاثة فصول. ومن أشهر رواياتهِ ذات الفصل الواحد وكلُّها من تأليفه وتلحينه وإخراجه □ نذكرُ " الخادم الأبله " و"عروسة الهنا " و " العاشق المُصوَّراتي" و "جميل وجميلة"، ومن رواياته ذاتِ الفصلين نذكر " الساحر " و "صندوق الدّنيا"، ومن تلك ذات الفصول الثلاثة نورد: "السلطان محمود" و "ملِكُ العجم" و "الأميرة ياقوت" و"شيخُ الصيّادين" و "الليالي الملاح" و "شهر زاد" و"تنابل السلطان" و"الشاطر حسن" و " العِشرة الطيّبة" ولأخيرة منها غير تلك التي لحنها سيد درويش.

بقيَ القباني في مصر خمس سنين، سافر بعدها إلى استنبول، لإحراز مأذونيّة تأليف فرقة تمثيلية، ولكن عزّت باشا العابدرغِبَ إليهِ البقاء عنده، إعجاباً بهِ و عيَّنَهُ قارئاً في قصره، وأحتفى به مثل الأُدباءُ وأثنت عليه الصحافةُ وأكرمت الحكومةُ مثواه.ولما حكم السلطان عبد الحميد أحترمَهُ وعطفَ عليه. وبالرغمِ من ذلك، فإنَّهُ حنَّ إلى مسقط رأسه دمشق، فترك استنبول وعاد إليها في عام ١٩٠٢، وأستقرَّ بها بعد أن أدّى رسالتَه الإنسانية، فى خِدمة الفن والغناء والتمثيل.

كان القباني رجلاً فاضلاً وجليلاً متواضعاً، يعطِفُ على الفنّانين، يأخُذُ بيدهم ويمدُّهم بالمساعدة، ويعتني بأُمورِهم. وعُرِفَ عنهُ الكرم والسّخاء.

إعترافاً بفضلهِ أقامَ إتخادُ الفنانين بمصر عام ١٩٣٨ تمثالاً نصبوه في شارع محمد علي بالقاهرة.

المراجع

١. الموسوعة العربية: (٢٠٠١) قرص الكتروني إنتاج شركة العريس للكمبيوتر

٢. الأعلام للزركلي في ترجمة لأبي خليل القباني.

٣. معجم الأُسر والأعلام الدمشقيّة، الصوّاف، ص ٣٢ و ص. ٤١٤.

٤. إيبش، أحمد، دفاتر شامية عتيقة، صز ٩٣ و ص ١٧٠ وص ٢٦٩.

٥. هذا المقال مأخوذٌ في جزءٍ منهُ، من صفحتين أملاهما عليَّ الأستاذ حُسني حريري □ أستاذ الموسيقى في مدرسة جودت الهاشمي الثانوية في دمشق عام ١٩٦٠ -١٩٦١ وأن ما زلتُ تلميذاً فب الصف الحادي عشر، رحمه الله وجزاه الله عنا كلَّ خير.

٦. نجم، محم د يوسف، المسرحية في الأدب العربي الحديث، ص ٢١٠ □ ٢١٥.

٧. نجم، محم د يوسف، الشيخ أحمد أبو خليل القباني، المسرح العربي (دراسات ونصوص)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.